مى زيادة

عواطف كسيرة أوصلتها إلى الجنون

- لبنانية الأصل، فلسطينية المولد مصرية الجنسية.
- جمعت بين الجمال والذكاء وطيبة القلب.
- أديبة وخطيبة شاعرة وصحافية.
- كان صالونها ملتقى الأدباء والمفكرين والسياسين.
- أحبها العقاد ولطفى السيد وأنطون الجميل، وأحبت هى جبران خليل جبران
- أتهمها أقاربها بالجنون وأدخلوها المصحة
- دُفنت فى مصر القديمة.

بين نساء العرب المعاصرات كثيرات ممن دخل الحب قلوبهن، أو فتحن تلك القلوب لمن يستحق أو لا يستحق دخولها.

لكن مارى إلياس زيادة، الشهيرة بتسمية الآنسة مى، كانت حالة مميزة فى مطلع القرن العشرين. فهى لم تكن حالة عاطفية فقط، بل حالة ثقافية واجتماعية، وحالة «علاقة» فريدة مع النفس ومع الغير.

يقول البعض إن مَىّ زيادة التى تمتعت بقدر وفير من الجمال والذكاء والثقافة، ظلمت نفسها وأنها تتحمل مسؤولية فقد الأصدقاء الأوفياء والحبيب الذى يمكن أن يشعرها بالسعادة والأستقرار.

وقد رحلت مى فى ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٤١م، لكنها مازالت بانتظار من ينتصر لها، حيث قالت فى رسالة إلى الصحافى والأديب يعقوب صروف: «أتمنى أن يأتى بعد موتى من ينصفنى».

مارى إلياس زيادة، فتاة لبنانية الأصل، فلسطينية المولد، مصرية الجنسية، جميلة الوجه، شرقية الملامح، لها صفحة وجه بيضاء مستديرة، ينسدل حولها شعر أسود غزير بتسريحة عصرية أنيقة، ويطل من عينيها السوداوين البديعتين بريق عجيب يجمع بين الذكاء الحاد، والحنان الجارف والحزن الدفين.

جمال الروح والعقل

وإلى جانب الجمال، فإن سر جاذبية «الآنسة مى»، أو النابغة كما وصفها من عاصروها، يُكمن خلف كل هذا الجمال الخارجى، إذ كان يشع من داخل هذه المرأة جمال عجيب وهبها إيَّاه الخالق عز وجل، ربما ينبع من رقتها الزائدة، أو حنانها الجارف أو عقلها ورصانتها.

فقد جمعت مَيّ بين ثلاث من جواهر الصفات التى يندر أن تجمعها امرأة واحدة. فهى جميلة للغاية، وبارعة الذكاء، وطيبة القلب.

يظن الكثيرون أن الذكاء والجمال لا يجتمعان فى امرأة واحدة لأن أحدهما يفسد الآخر. لكن مَيّ كسرت هذه القاعدة إذ جمعت بين الذكاء الحاد والجمال الشرقى الرائع، بل وأضافت إليهما القلب النابض بالحب الذى يتألم لبكاء الطفل الصغير، وينعي عصفوراً رقيقاً يموت فى قفصه، ويحزن لأحزان أصدقائه.

كانت مى زيادة ذات مواهب متعددة فى شتى الجوانب، وأثرت الحياة الثقافية. فهى أديبة وخطيبة وشاعرة وصحافية، ولها العديد من المؤلفات الأدبية منها: «سوانح فتاة» و«باحثة البادية» و«بين المد والجزر» و«إبتسامات ودموع»، بالإضافة إلى ١٦٢ موضوعاً لم تُجمع، بين القصيدة المنثورة والمقال والقصة القصيرة. ومن تلك الأعمال: «ليالى العصفورية»؛ وتتناول فيها ما قاسته من أهوال داخل مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان، و«فى بيتى اللبنانى» وتصف فيه حياتها بعد الخروج من المستشفى و«مذكراتى» و«علاقة فينيقية بمصر». وغيرها من الأعمال.

وكانت شاعرة رقيقة الحس والأسلوب، وكان أول كتاب صدر لها عام ١٩١١. وهو «أزاهير حلم» ديوان شعر بالفرنسية، وهو العمل الذى لم يُترجم كاملاً حتى الآن.

الصحافية

كانت مَيّ نابغة فى مجال الصحافة أيضاً بل إن بدايتها فى مصر كانت بداية صحافية من خلال جريدة «المحروسة» التى كان والدها محرراً مسؤولاً فيها.

وكان لمى باب فى مجلة «السياسة» الأسبوعية يُسمّى «خلية النحل» وهو باب يحرره القراء، إذ يرسل بعض القراء أسئلة واستفسارات يجيب عليها قراء آخرون.

وقد جذب الباب عدداً كبيراً من الشباب فى ذلك الوقت، أصرّت ميّ أن تعمل كصحافية حرّة، ورفضت عرض الأهرام أن تكون عضواً فى أسرة التحرير.

وتمتعت «النابغة» بمقدرة خطابية مميزة، إذّ كانت خطيبة ذكية تتحدث بأسلوب مشوّق بعيداً عن الرتابة والملل. وكانت قادرة على خلق جو من المرح الرصين داخل القاعة. واستمرت مَيّ، ذات مرة تتحدث عن قدرات المرأة العصرية. ثم تركت الأوراق ونظرت إلى جمهورها وقالت: «لا تغاروا أيها الرجال..» وكانت خطابات مى زيادة تجذب الجمهور بنوعيه من مختلف المراحل السنية؛ الشباب، الكهول، الرجال والنساء، فعندما كانت مَيّ تخطب كانت القاعة تمتلئ ، وتم فى إحدى المرات استدعاء الشرطة بسبب الزحام الشديد.

ملتقى المثقفين

ومن أهم إسهامات هذه الكاتبة فى الحياة الفكرية أنها فتحت صالون منزلها فى شارع عدلى كل ثلاثاء، ليؤمّه الأدباء والمثقفون، فى الأدب والنقد والفن والفكر والسياسة والإقتصاد. ومن مختلف الجنسيات العربية والأوروبية، ومن الجنسين، ومنهم من يتحدث العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

وكان صالون «الآنسة مى» الذى استمر يُقام لمدة تقارب العشرين عاماً، منتدىً أدبياً مهماً، حاول الكثيرون الاقتداء به.

وقد شارك فى صالون مَيّ العديد من الأدباء المرموقين ومنهم: طه حسين وأحمد لطفى السيد وعباس محمود العقاد وأحمد حسن الزيات ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى وهدى شعراوى وملك حفنى ناصف وسلامة موسى وإسماعيل صبرى وأحمد زكى باشا وولى الدين يكن وأنطون الجميل وغيرهم.

وكانت مَيّ تحرص على أن يكون صالونها الأدبى على أرقى المستويات الأخلاقية، وقد وضعت فى صالون بيتها لوحة عليها أبيات الإمام الشافعى:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى

وعيشك موفور، وعرضك صيِّن

لسانك لا تذكر به عورة امرئ

فكلك عورات وللناس ألسن

صراع العقل والعاطفة

كانت مَىّ ذات عقل راجح وشخصية قوية، مما جعل كل من حولها من كُتّاب يحبونها ويغازلونها، ولكن لم يستطع أى منهم أن يصل إلى ذلك القلب النابض بتلك العقلية القوية، أو يتفهّم ذلك الصراع الدائم بين عقلها وعاطفتها.

فقد أحبها العقاد ذلك الشاب الأنيق، والنجم اللامع فى المجتمع الفكرى، وطلب ودّها لكنها صدّته.

وحينما كان الأمر يتعدّى حدود الصداقة كانت تنبهه إلى ذلك بلطف، فظلت العلاقة بينهما أكثر من الصداقة وأقل من الحب.

وأحبها أنطون الجميل رئيس تحرير «الأهرام». فأرسل إليها رسائل الحب بل نظّم فيها الشعر.

وأحبّها أحمد لطفى السيد، وغيرهم من الكتّاب والأُدباء. لكن الأديبة المرهفة كانت تبحث عمّن يثير عاطفتها وإحساسها. وأخيرا وجدت غايتها فى جبران خليل جبران، ذلك الشاب الرومانسى الرقيق الذى أحبّته وأحبّها حباً أفلاطونياً، والتى انقلبت حياتها رأساً على عقب عندما علمت بخبر وفاته.

والغريب فى الأمر: أنها رفضت الزواج منه رغم كل هذا الحب والسبب بلا شك هو ذلك الصراع الدائم بين عقلها وعاطفتها، أحبت جبران خليل جبران، «شاعر المهجر» اللبنانى الذى أحبته دون أن تراه؛ والذى ظلّت تُراسله ويُراسلها لأكثر من عشرين عاماً، ومن شأن جمع تلك الرسائل أن تصنع قصة حب أسطورية. فها هو جبران يكتب لها قائلاً:

«وكيف حال عينيك؟ أنت تعلمين بقلبك أنّ حال عينيك يُهمَنى إلى درجة قصوى، وكيف تسألين هذا السؤال وأنت تُشاهَدين بعينيك؟ وأننى أُحب نُورهما، وأُحب النظرات البعيدة فيهما وأحب خيالَات الأحلام المتوهجة نحوهما».

وهى تكتب إليه قائلة:

«تعال يا جبران، وزرنا فى هذه المدينة «القاهرة» فلماذا لا تأتى، وأنت فتى هذه البلاد التى تُنادى عليكَ؟».

رحلة العذاب

بدأت سلسلة العذاب متوالية، إذ توفى والدها عام ١٩٣٠م ثم كان رحيل حبيبها جبران سنة ١٩٣١ لتلحق به والدتها سنة ١٩٣٢م. وأثرت هذه الحوادث فيها تأثيرا كبيراً حتى إنها امتنعت تماماً عن الكتابة منذ رحيل جبران.

ولم يقتصر الأمر على ذلك القدر من آلام الفراق، بل عانت آلام الخداع والنفاق أيضاً على يد حبيبها الأول وابن عمها يوسف زيادة، مصحوبة بآلام الجحود ونكران الجميل من قبل أصدقائها ومعارفها، لتكتمل بذلك حكاية الألم.

فعندما لاحقت الأحزان مَيّ، وشعرت بالخوف من أقاربها فى مصر والذين عجزوا عن إخفاء طمعهم فى أموالها استعانت مى بيوسف ابن عمها وخطيبها السابق، طالب الطب الوسيم الذى فسخت خطبتها له فى الماضى لأنه لم يكن جاداً فيها، فكتبت له فى سبتمبر ١٩٣٥: «يوسف.. ألم تعدّ راغباً فى أن تكون شقيق روحى؟ أنا يا يوسف وحيدة: أتوسّل إليكَ أن تأتى إلىّ!».

وبالفعل أتى يوسف ولكن ليس لينقذها من آلامها وإنما ليطعنها للمرة الثانية إذ استدرجها للتوقيع على بعض الأوراق، وأقنعها بالسفر إلى لبنان لكى «تغيِّر هواء وتخلص من الهموم».

كان يوسف طامعاً فى الإستيلاء على ثروتها الصغيرة، فأشاع هناك أنها مجنونة، وتمكّن من إدخالها مستشفى «العصفورية» بعد أن نجح هو وأقرباؤه من العائلة فى استصدار شهادات طبية مزوّرة بذلك، وبعد إدخالها المستشفى بدأوا تنفيذ الخطوة الثانية إذ أصدروا قراراً بالحجر عليها فى لبنان ثم فى مصر، واستطاعوا بهذا القرار أن يستولوا على أموالها ومجوهراتها ومطبعة أبيها، وأن يبددوا مقتنيات مسكنها فى شارع عدلى فى القاهرة، أما مَيّ فقد عانت كثيراً فى «العصفورية» إذ امتنعت عن الطعام لفترة طويلة لشعورها بالظلم، وحقن الأطباء جسدها بالأنابيب ليبثوا لها المحاليل، بل كانوا يفتحون لها أسنانها بالقوة ليجشروا الطعام فى فمها، وكان هذا هو سبب كرهها الذهاب لطبيب الأسنان فى أواخر أيام حياتها.

ولولا تبنى أمين الريحانى لقضيتها لظلّت مَىّ فى هذه المحنةَ حتى موتها بعد أن تخلّى عنها أصدقاؤها ومعارفها الذين أفنت حياتها فى إسعادهم فلم تجن سوى الجحود والآلام.

وخرجت مَىّ أخيراً من هذه المحنة بعد ثلاث سنوات مريرة، وظهرت للمرة الأولى فى الجامعة الأمريكية فى لبنان، لتلقى محاضرة هناك، وعندما جاءت إلى مصر رتبت محاضرة فى الجامعة الأمريكية فى ١٥ ديسمبر ١٩٣٩، وبدت فيها راجحة العقل، جميلة المظهر، ثم رتب لها وديع فلسطين محاضرة أخرى ألقتها فى ٢٠ يناير ١٩٤١، تحت عنوان «عش فى خطر».

ولكن لم تستطع مَىّ بعد هذه المحنة أن تعود إلى حياتها الطبيعية مرة أخرى، فقد تدهورت صحتها، حتى توفيت فى ٢٩ أكتوبر ١٩٤١م.

يريدون قتلها مرتين

فى الفترة التى احاطت بها الهموم كتبت وصيتها الأخيرة وكأنها تشعر بالمؤامرة التى ستُدبر لها بعد رحيلها فكتبت تقول:

«أحظر على أى أحد أن يهين جثتى بأى طريقة من الطرق، فليحترمنى جثة أولئك الذين مزقونى فى حياتى، وليذكروا أنهم مثلى معرضون للنكبات والرزايا، وهذه إرادتى، أريد أن تُحترم وأُبارك من يحترمها، واختارت أن تُدفن فى مصر، ذلك البلد الذى أحبته كثيراً، والذى زادتها المحنة التصاقاً وحباً به».

ورغم ذلك نادى بعض المفكرين اللبنانيين بنقل مقبرة مَىّ إلى شحتول فى منطقة كسروان فى لبنان ووجهوا رسائل للمسؤولين المصريين بواسطة السفارة اللبنانية فى القاهرة يطلبون منهم ذلك.

وتصدى لتلك الخطوة الكثير من المثقفين المصريين، وبادرت لذلك الكاتبتان سناء البيسى، وصافيناز كاظم وانضم إليهما معظم الكتاب والمثقفين المصريين.

وعقد المجلس الأعلى للثقافة ندوة فى الذكرى الثالثة عشرة بعد المائة لميلادها بمبادرة من أمينه العام، جابر عصفور كمحاولة لطرح الخلاف والرد على اللغط، واجتمعت الآراء على الإبقاء على مقبرة مَىّ فى مكانها فى مصر القديمة، على ألا تُقلق أو يمس أحد أحجارها أو النباتات المحيطة بها، وذلك احتراماً لوصيتها وحفاظاً على حُرمة الموتى فمى لم تكن لبنانية فقط وإنما هى خليط عربى أصيل. كتبت للعرب ودُفنت فى أرض العرب.